استعمال اللغة السريانية في الطقس البيزنطي في صيدنايا

قد يذكر قرّاؤنا تلك المناظرات الشديدة التي قامت ، لثلاثين سنة خلت ، حول استعمال الروم ، من ارثوذكس وكاثوليك ، للغة السريانية في طقوسهم البيزنطية ، وما ادّت اليه من جدال عنيف ومكابرة بعيدة عن روح العلم المتجرّد . وقد اطلعنا مؤخرًا في مجلة « المشرق » (كانون الاول ١٩٣٢ ، ص ٥٠١-٦٠٢) على بحث دقيق بالعنوان اعلاه مقتطف من كتاب نفيس وضعه المؤرخ المدقق السيد حبيب زيّات بعنوان « خفايا الزوايا من تاريخ صيدنايا . » جال الكاتب في موضوعات عديدة تدور كلها حول ذاك الدير الشهير ، ومنها البحث الذي يهمنا اليوم . فابان اهمية هذا الموضوع في معرفة لغة الملكيين الطقسية في كل الديار الشرقية قبل القرن الثامن عشر . واشار الى الصعوبات التي تعترض الباحث في ذلك ، والى المناظرات العديدة الآخذة بعضها بل اكثرها ، مأخذ الهوى والميل والتعصّب . ثم قال : « ومهما يكن من دعوى الفريقين فلا مشاحة ان اهل القرى والجبال كانوا اكثر ما يتكلمون بالسريانية او يعلّمون بها الى حين تعلموا العربية فجمعوا بين اللغتين . وبقيت منهم بقية الى اواخر القرن الثامن عشر . » واشار الى المخطوطات الملكية السريانية المحفوظة في رومة وباريس والشام ولبنان وكلها تدلّ على ذلك . ثم خصّ بكلامه دير صيدنايا فقال (ص ٥٠٤) :

ولا ريب انه لو كانت سلمت لنا مخطوطات دير السيدة ورقوقها ولم تتلفها يد الغباوة والجهل لامكننا ان نقف فيها على اسماء كثيرين من نساخ صيدنايا في السريانية وبينهم بعض رهبان الدير ورؤسائه واحباره . ومن طالع كتاباتهم وتعليقاتهم التي ترى اليوم على عدة مصاحف سريانية مصونة في الخزائن الاوربية وكانت موقوفة على كنائس صيدنايا او مستعملة فيها يتحقق لاول وهلة ان كلًا من الاساقفة الذين تتابعوا على صيدنايا حتى اوائل القرن الثامن عشر كان يعرف الارامية ويكتبها ويصلي بها الطقوس البيزنطية . وسيأتي

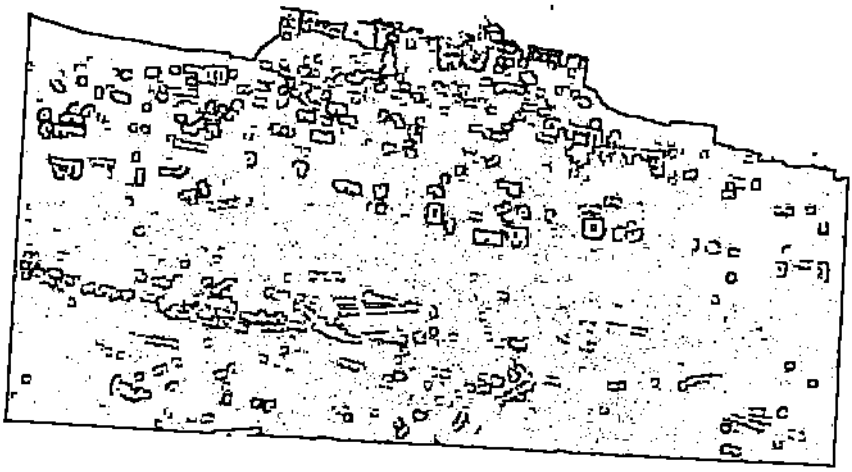

صيدنايا – منظرها من الجهة الجنوبية الشرقية
(تصوير الاب دي مارتمبري)

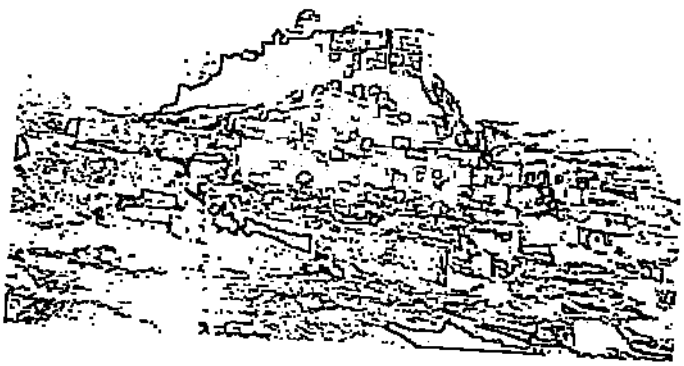

صيدنايا – منظرها من الجهة الغربية
(تصوير الاب دي مارتمبري)

صيدنايا – كنيسة الدير
(تصوير الاب دي مارتمبري)

صيدنايا – احدى راهبات الدير

في الفصل المعقود لهم تعداد كل هذه الكتابات والتعليقات التي لكل منهم في كتب الصلوات السريانية. نجمل منهم هنا ذكر بطرس (سنة ١٢٦٤) واثناسيوس (١٤٣١) ومرقص (١٤٤٦—١٤٥١) وسيمون (١٥٦٥—١٥٨٠) واتناس (١٥٩١—١٦٠٤) وسيمون (١٦٠٤—١٦٣٤) ويواصف (١٦٤٥—١٦٤٨). ولهذا الاخير في خزانة المرحوم المطران يوسف داود السرياني بدمشق كتاب القنداق بخط يده نسخ فيه الصلوات باللغتين السريانية والعربية بتاريخ ١٦٤٦ ولسيمون سلفه في خزانة الفاتيكان بضع صفحات انها كانت ناقصة من ميناون شهري نيسان وايار في السريانية الى غير ذلك مما سيمرّ بنا او يظهره لنا غداً روّاد البحث والتنقيب.

ولا شكّ عندنا ان كل الاساقفة الذين خلفوا يواصف بعد سنة ١٦٤٨ الى سنة ١٧٢٢ كانوا يعرفون السريانية او على الاقل كانوا يتكلمون بها. ومما يؤيد ذلك ما حكاه السمعاني عن آخرهم جراسيموس الدمشقي (١٧١١—١٧٢٢) بعد زيارته الدير في شهر تشرين الاول سنة ١٧١٥ قال: «والاسقف والرهبان يحتفلون الان بالقداس الالهي والصلوات للراهبات في كنيسة السيدة حسب الطقس الرومي باللغة العربية. ولكن قبلاً كانت هذه الصلوات تقام باللغة السريانية... وهذا الاسقف يدعى جراسيموس وهو رجل بسيط مستقيم يتكلم ليس باللسان العربي فقط ولكن بالسرياني ايضاً». ثم ذكر حسن استقبال الراهبة الرئيسة والرهبان له. قال: «واعطوني بعض المخطوطات السريانية ومعظمها في طقسيات الكنيسة الرومية. وكانت مطروحة في احدى زوايا الهيكل طعمة للصراصر والعث.»[1]

واجلّ الشواهد على مكانة اللغة الارامية في صيدنايا هذه العقود والصكوك العربية المتعلقة باوقاف الدير التي كان يُرى في ذيلها احياناً توقيعات الاساقفة بخطوط ايديهم بالسريانية. وقد حُفظت منها بعض نسخ في دفترين أطلعتنا عليهما الرئيسة الحالية مريم صباغ يوم زيارتنا الدير في ٢٩—٣٠ ايلول سنة ١٩٣٠ وكان في النية تصوير هذه التوقيعات لنشرها هنا مع غيرها من الصفحات

---

١) برنامج المخطوطات السريانية الفاتيكانية، باللاتينية ص ٤٧٨

والكتابات والفوائد التي ترى في بعض مخطوطات الدير مما له شأن في التعريف بتاريخه وتاريخ الكرسي الانطاكي . ولكن ابى ذكاء بعض الوكلاء ان ننقل شيئاً بدعوى انه قد مضى على الدير نيف والف سنة وليس له تاريخ مكتوب دون ان يسقط ذلك من قدره . قال : ولا ارى ما يستفيد الدير من مثل هذه المنشورات التي لا تزيد شيئاً في ريعه (كذا).

وهذه التوقيعات السريانية القيمة بعضها لاسقف صيدنايا اقتناص بتاريخ ١٠١١ للهجرة (١٦٠٢ م) وبعضها الآخر لخلفه سيمون بتاريخ ٧١١٧ لآدم (١٦٠٩ م) و١٠٣٠ و١٠٤١ للهجرة (١٦٢٠ و ١٦٣١ م) فعسى ان لا تُتلف صورها كما أُتلفت قبلاً كل الذخائر السريانية التي كان الدير غنياً بها في اوائل القرن الماضي. وحبذا لو نشر مضمون هذين الدفترين بالحرف الواحد لما يمكن تعليقه عنهما من الاخبار والآثار والفوائد عن صيدنايا واهاليها واوقافها واسماء بعض البيوت والاملاك والحدود في ما جاورها من القرى والبلاد...

ثم ذكر ما يدلّ ايضاً على سريانية صيدنايا من الآثار المحفوظة في الملابس الكهنوتية مكتوبة باللغة السريانية.

وقد عُرفت سريانيةُ اهل صيدنايا قديماً وثبت اختصاصهم بها لدى زوّار الدير عموماً ممن مروا بهم او خالطوهم وسمعوا كلامهم وصاواتهم بها . واشهر من نبّه عليها من الغرباء انبا مخايل القبطي مطران دمياط في القرن الثاني عشر فقد نقل عنه الشيخ المؤتمن ابو المكارم سعدالله بن جرجس بن مسعود فصلاً قال فيه :

« وجدت بخط انبا ميخايل مطران دمياط في الثاني والعشرين من برمودة سنة تسعماية كنائسية (١٧ نيسان ١١٨٦ م) يتضمن ان شرقي دمشق على مسيرة نصف وربع نهار ثمّ بلدة يقال لها صيدنايا . تتبعها تصير الى قرنة الجبل تجد كنيسة عالية البناء حسنة جدًا يسد قوم « ملكية ولساغم سرياني » . والكنيسة المذكورة على اسم السيدة العذرى الطاهرة..» (١

١) كتاب الكنائس والديارات نسخة خطية وحيدة محفوظة عند الاستاذ جرجس فيلوثاوس عوض بطنطا تلطف باطلاعي عليها . ومنها نقلت حرفياً ما تقدم اعلاه وما سيجيء .

وهذه الشهادة نص واضح صريح على سريانية صيدنايا لا يدع اقل مجال للتأويل او الجدال فحسبنا به صحة ناطقة لقول كل خطيب.

وقد كان الدير حتى اوائل القرن التاسع عشر حافلاً بالمخطوطات والاوراق السريانية وبينها كل قديم ونفيس ومعظمها من الكتب السدينية التي كانت موقوفة على الكنائس والاديار. بلغت كثرتها فيه مبلغاً ضاق به ذرع الوكلاء حين ارادوا ان ينفوا عن الدير نسبة السريانية فلم يروا لابادتها والتخلص منها واسطة اعجل من ايقاد النار بها في خلال اسبوعين. ونغني عن البيان ان مثل هذه المصاحف العديدة التي توارثها الدير منذ القدم وحبسها عليه كل الرهبان والزوار حبساً مؤبداً واوجبوا اللعن على كل من اخرجها منه او تصرف بشيء منها لم تجتمع فيه عبثاً ولم تُخزن لمجرد الهوى والمثالاة. وانما اوجدتها فيه حاجة الاستعمال وضرورة الصلاة والتفاهم فهي شهود على لغة كتّابها وقرائها تنادي بعد زوالهم بلسان حالهم.

تلك آثارنا تدل علينا فانظروا بعدنا الى الآثار

ويتابع المؤرخ المدقق سرد الشهادات على سريانية صيدنايا من اقوال الرحالة الافرنج كنيبوهر (١٧٦٣) وڤولني (١٧٨٥) وبرتون (١٧٩٧) وكلها تؤيد ما اراد ان يبرهن عنه. ثم يختم الفصل قائلاً:

ومن تدبر ما تقدم بعين النزاهة والاخلاص لا يسعه الا ان ينقاد لما اوردناه من البينات والآثار التاريخية ويأسف كل الاسف ان جهلها قبل اليوم كان هو الباعث الاكبر على اتلاف ما أُتلف من المخطوطات والاوراق والرقوق السريانية التي كانت محفوظة في الدير وكان احراقها عمداً وتواطؤاً نكبة من نكبات الشرق لا ينقضي تذكارها وحرقة في صدر العلم لا يخبو أوارها.